الحجّ المبرُور

أحكام وأسرَار

بقلم

فضيلة الدكتور

عبدالحليم محمود



الكتاب : الحج المبرور: أحكام وأسرار
المؤلف : د. عبد الحليم محمود
تاريخ النشر : ١٩٩٩
رقم الإيداع : ٤٢٦١
الترقيم الدولى : I S B N 977 - 215 - 406 - 4

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق
والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

- الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

وبعد ،،،

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾. (سورة الكهف، آية ٥٨).

ولأنه - سبحانه - غفور، ولأنه رحيم، فتح أبوابا كثيرة يدخل منها طلاب المغفرة والرحمة إلى مغفرته ورحمته.

من ذلك، ما رواه الإمام مسلم - بسنده - عن ابن شماسة المهرى قال:

حضرنا عمرو بن العاص، وهو فى سياقة الموت، فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ .. أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال:

فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد: شهادة أن لا إله إلا

الله، وأن محمدا رسول الله. إنى قد كنت على أطباق ثلاث [1]. لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ منى، ولا أحب أن أكون قد استمكنت [2] منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.. فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك.. فبسط يمينه؟ قال: فقبضت يدى - قال: مالك يا عمرو؟

قال: قلت: أردت أن أشترط .. قال: تشترط بماذا؟

قلت: أن يغفر لى.

قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله .. وما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ ولا أجمل فى عينى منه.. وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له.. ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه: ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

وعن الحج خاصة، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وعن عبد الله بن مسعود فيما رواه الترمذى وغيره، قال

---

(١) أحوال.

(٢) أى تمكنت.

رسول ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير [1] خبث الحديد والذهب والفضة.. وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله: دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم».

الحج – إذن – من كبريات الوسائل التى يصل الإنسان عن طريقها إلى رحمة الله ومغفرته.

ولكن، أى حج ؟

إن الله – سبحانه وتعالى – يقول:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة، آية ١٩٧).

والآية الكريمة تنهى الحاج عن أمور ثلاثة:

أولها: الرفث – يقول ابن كثير: «فلا رفث» أى من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ (سورة البقرة. آية ١٨٧).

---

(١) المنفاخ الذى ينفخ به الحداد.

وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء.. روى ابن جرير بسنده أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم [1].

وثانيها: الفسوق، وعنه يقول ابن عمر:

«الفسوق ما أصيب من معاصى الله صيدا أو غيره».

وروى ابن وهب بسنده عن ابن عمر قال: «الفسوق إتيان معاصى الله فى الحرم».

وقال آخرون: الفسوق ها هنا السباب.. قال ابن عباس، وابن عمر، وغيرهم من الصحابة والتابعين، وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت فى الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».. ولهذا رواه ها هنا الحبر أبو محمد بن أبى حاتم، من حديث سفيان الثورى، عن زبيد، عن أبى وائل: عن عبد الله، عن النبى ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».. وما من شك فى أن الفسوق هو كل هذه المعانى، ومن الواضح أن كل معنى منها لا يتعارض مع المعنى الآخر.

(١) ويقول صاحب الترغيب: الرفث: بفتح الراء والفاء جميعا.. روى عن ابن عباس أنه قال: الرفث: ما روجع به النساء، وقال الأزهرى، الرفث: كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة.. قال الحافظ «المنذرى» الرفث يطلق ويراد به الجماع، ويطلق ويراد به الفحش، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة، فيما يتعلق بالجماع، وقد نقل فى معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء.. وإننا نرى أن الرفث هو كل هذه المعانى.

وثالثها: الجدال، وهو كما قال ابن عباس: المراء فى الحج..
وعن عبدالله بن مسعود: فى قوله تعالى: «ولا جدال فى الحج».. قال: «أن تمارى صاحبك حتى تغضبه».

ولقد سئل ابن عباس عن الجدال.. قال: المراء.. «تمارى صاحبك حتى تغضبه».

وعن نافع، عن ابن عمر، قال: «الجدال فى الحج، السباب والمنازعة» .. والجدال فى الوضع الشامل هو كل هذه المعانى.

وترشد الآية الكريمة فى صورة تتضمن التوجيه والتشجيع والحث على عمل الخير، قائلة: «وما تفعلوا من خير يعلمه الله».

أى: ويؤتى فاعله جزاء ما قدمت يداه من معروف.

وتأمر الآية الكريمة بالتزود: «وتزودوا» .. ثم تقول: «فإن خير الزاد التقوى».

قال العوفى عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم، ليست معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا؟.. فقال الله: «تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس» وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عكرمة: أن ناسا كانوا يحجون بغير زاد، فأنزل الله: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى».

وعن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون.. فأنزل الله: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى».

وقوله: «فإن خير الزاد التقوى».

يقول الإمام ابن كثير: لما أمرهم سبحانه بالزاد للسفر فى الدنيا: أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: «وريشا، ولباس التقوى ذلك خير» لما ذكر اللباس الحسى، نبه: مرشدا إلى اللباس المعنوى: وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخرسانى فى قوله: «فإن خير الزاد التقوى» يعنى: زاد الآخرة. وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى - بسنده - عن جرير بن عبد الله عن النبى ﷺ قال: «من يتزود فى الدنيا ينفعه فى الآخرة».

«واتقون يا أولى الألباب»

يقول: «واتقوا عقابى ونكالى وعذابى لمن خالفنى ولم يأتمر بأمرى، يا ذوى العقول والأفهام».

ونعود فنتساءل: كيف يكون الحج الذى يخرج الإنسان منه مطهرا من الذنوب كيوم ولدته أمه ؟

كيف يكون الحج المبرور؟

إن هذا الكتاب محاولة لبيان هدى الله ورسوله فى ذلك، والله نرجو أن ينفع به ويجعله من الوسائل التى تهدى إلى كيفية الحج المبرور الذى ليس له جزاء إلا الجنة.

الفصل الأول

الحج من أركان الإسلام

يقول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (سورة آل عمران، الآية ٩٧).

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى سؤال جبريل أياه عن الإسلام؟ فقال:

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتحج، وتعتمر، وتغتسل من الجناية، وأن تتم الوضوء، وتصوم رمضان.

قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟

قال: نعم.

قال: صدقت [1].

فريضة الحج مرة:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ: فقال: «يا أيها الناس: إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه، وهو فى الصحيحين وغيرهما بغير هذا السياق فى الأسلوب ولكنه متحد فى المعنى.

فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم عل أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه» (١).

أفضل الأعمال:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟

قال: إيمان بالله ورسوله.

قيل: ثم ماذا؟

قال: الجهاد فى سبيل الله.

قيل: ثم ماذا ؟

قال: حج مبرور (٢).

وروى ابن حبان فى صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال عند الله تعالى: «إيمان لاشك فيه، وغزو لا غلول فيه، وحج مبرور». «المبرور»: قيل هو الذى لا يقع فيه معصية.

وقد جاء من حديث جابر مرفوعا، أن بر الحج، إطعام الطعام وطيب الكلام. وعند بعضهم: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام».

---

(١) راوه مسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

ومما لاشك فيه أن ذلك من بر الحج.

ولقد حددالله سبحانه بر الحج بقوله تعالى:

«فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج».

وفد الله:

عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «الغازى فى سبيل الله، والحاج، والمعتمر، وفد الله.. دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم» [1].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله، ان دعوه أجابهم، وأن استغفروه غفر لهم» [2].

وروى ابن خزيمة، وابن حبان، فى صحيحيهما، ولفظهما: قال رسول الله ﷺ:

«وفد الله ثلاثة: الحاج، والمعتمر، والغازى» وقدم ابن خزيمة «الغازى».

ثمار الحج المبرور:

ونعود إلى الحديث عن الحج المبرور وعن ثماره:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [3].

(١) رواه ابن ماجه، واللفظ له، وابن حبان فى صحيحه.

(٢) رواه النسائى وابن ماجه.

(٣) رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه.

وزاد الأصبهانى:

«وما سبح الحاجة من تسبيحة، ولا هلل من تهليلة، وكبر من تكبيرة، إلا بشر بها تبشيرة».

وعن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».. قيل: وما بره؟ قال: إطعام الطعام، وطيب الكلام» (١).

وفى رواية لأحمد والبيهقى: «إطعاما الطعام، وإفشاء السلام».

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (٢).

وفى رواية للترمذى.. أنه قال: «غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة. وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة. وما من مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه» (٣).

---

(١) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن، وابن خزيمة فى صحيحه.

(٢) رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عبد الله بن جراد الصحابى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حجوا فإن الحج يغسل الذنوب، كما يغسل الماء الدرن».

أشهر الحج:

يقول الإمام البخارى:

باب قول الله تعالى: «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج». «يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج».

وقال ابن عمر رضى الله عنهما:

أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما:

«من السنة أن لايحرم بالحج إلا فى أشهر الحج».

الاستطاعة:

وعند الترمذى عن ابن عمر، جاء رجل فقال: «يا رسول الله.. ما يوجب الحج؟ .. قال الزاد، والراحلة».

وتزودوا:

قال الإمام البخارى باب قول الله تعالى: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى».

حدثنا يحيى بن بشر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

وكـان أهل اليـمن يحـجـون، ولا يتـزودون، ويقـولون: نـحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى».

★ ★ ★

الفصل الثانى

الإحـــــرام

الميقات:

الميقات: هو المكان الذى حددته السنة الشريفة لابتداء أعمال الحج. وميقات المصريين الذين يركبون الطائرة يجوز أن يكون من بيوتهم، وهو أيسر لهم، أو من المطار.

أما ركاب البواخر، فإن ميقاتهم من رابغ.

وتبدأ أعمال الحج بالإحرام:

أنواع الاحرام:

عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فمنا من أهلَّ - أى أحرم - بعمرة، ومنا من أهلَّ بحجة وعمرة، ومنا من أهلَّ بالحج، وأهلَّ رسول الله ﷺ بالحج.

فأما من أهلَّ بعمرة فحلَّ، وأما من أهلَّ بحج، أو جمع الحج والعمرة، فلم يحلوا، حتى كان يوم النحر» [1].

قول السيدة عائشة رضوان الله عليهما: «فمنا من أهلَّ بعمرة» .. أى أحرم ناويا العمرة.

---

(١) اخرجه البخارى فى كتاب الحج ومسلم فى كتاب «الحج».

وهكذا فى بقية الحديث.. ومعنى: «فأما من أهلَّ بعمرة فحل» أى أنه بعد أداء العمرة لبس ملابسه العادية وأصبح يحل له ما كان ممنوعا بسبب الإحرام.

وهذا الإحرام يتهيأ له الحاج بعدة أمور.. منها:

١ - أن يحلق شعره أو يقصره.

٢ - أن يقص أظافره.

٣ - أن يستحم ناويا بذلك غسل الإحرام، وهو سنة.

عن زيد بن ثابت ﷺ: «إن النبى ﷺ، تجـــرد لإهلاله واغتسل» [1].

٤ - أن يمس الطيب، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت أطيب رسول الله ﷺ، لإحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت» [2].

وقال عثمان بن عروة: سمعت أبى يقول: سمعت عائشة تقول: «طيبت رسول الله ﷺ لحرمه ولحله.. وقلت لها: بأى طيب؟.. قالت: «بأطيب الطيب».

وروى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كأنى أنظر إلى وبيص[3] الطيب فى مفرق النبى ﷺ بعد أيام وهو محرم».

---

(١) رواه الترمذى وحسنه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أى بريقه.

يقول ابن كثير:

«فهذه الأحاديث دالة على أنه عليه السلام تطيب بعد الغسل إذ لو كان الطيب قبل الغسل لذهب به الغسل ولما بقى له أثر ولاسيما بعد ثلاثة أيام من يوم الإحرام».

والطيب يستعمل قبل الإحرام، أما بمجرد الإحرام فإنه يحرم استعمال الطيب.

٥ - ان يلبس ملابس الإحرام:

وملابس الإحرام معروفة، وقد اصطلح أكثر الناس على لبس إزار، ورداء من القطن الأبيض.

إنهم يتّزرون: «والإزار هو الذى يستر الإنسان من وسطه إلى أسفل جسده».

ويرتدون: «والرداء هو الذى يستر النصف الأعلى من الإنسان» ببشكيرين.

عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ، ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال رسول الله ﷺ:

«لا تلبسوا القمص، ولا العمائم، ولا السراويلات ولا البرانس، ولا الخفاف، إلا أحد لا يجد النعلين فليلبس الخفين

وليقطعهما أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا من الثياب شيئا مسه الزعفران ولا الورس» [1] أ. هـ.

أما إذا لم يجد ملابس الإحرام فإنه يلبس السراويل .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب يقول: السراويل لمن لم يجد الإزار، والخفان لمن لم يجد النعلين. يعنى المحرم.

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يجد نعلين فليلبس خفين، ومن لم يجد إزارا فليلبس سراويل».

ويقول الإمام النووى فى ذلك:

«السراويل لمن لم يجد الإزار، والخفان لن لم يجد النعلين» يعنى المحرم.. هذا صريح فى الدلالة للشافعى والجمهور فى جواز «لبس السراويل للمحرم إذا لم يجد إزارا».

ويجمع الإمام النووى بين الأحاديث بقوله:

«أما حديث ابن عمر فلا حجة فيه، لأنه ذكر فيه حالة وجودالإزار، وذكر فى حديث ابن عباس وجابر حالة العدم فلا منافاة. والله أعلم».

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه، والزعفران والورس، نوعان يقصد بهما الطيب، قال ابن العربى: نبه على اجتناب الطيب، وما يشبهه فى ملاءمة الشم، فيؤخذ منه تحريم أنواع الطيب على المحرم، وهو مجمع عليه فيما يقصد به التطيب.

أما ملابس إحرام المرأة: «فإنها الملابس السابغة الساترة التى لا تغطى الوجه، ولا اليدين.

٦ - فإذا ما تم له ذلك يتوب إلى الله توبة خالصة نصوحا، ليستقبل الإحرام طاهر النفس والجسد.

٧ - صلاة ركعتين بنية سنة الإحرام، فإن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يقول: كان رسول الله ﷺ، يركع بذى الحليفة ركعتين.

٨ - وكل هذا إنما هواستعداد للإحرام، والإحرام هو أن ينوى الحج بقلبه، أنه عقد النية على الحج، وإذا شاء قال:

«اللهم إنى نويت الحج فيسره لى وتقبله منى».

أو «اللهم إنى نويت العمرة فيسرها لى وتقبله منى».

ثم يلبى: عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة (ميقات المدينة المنورة) أهل فقال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

ان التلبية هى الشعار الدائم للحاج إلى أن يرمى الجمار، وقد بيَّن العلماء معناها بعبارات تختلف فى الألفاظ وتتحد فى الجوهر.. وقد ذكر الإمام النووى [1] بعض هذه المعانى، ونلخص ما ذكر فيما يلى:

---

(١) مسلم جـ ٨ ص ٨٧.

التلبية: معناها: إجابة بعد إجابة ولزوما لطاعتك.

وقيل: معناها: إتجاهى وقصدى إليك. مأخوذ من قولهم دارى تلب دارك أى تواجهها.

وقيل: معناها: محبتى لك. مأخوذ من قولهم، امرأة لبة إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه.

وقيل: معناها :إخلاص لك.. مأخوذ من قولهم.. حب لباب: إذا كان خالصا محضا.. ومن ذلك لب الطعام ولبابه.

وقيل: معناها: أنا مقيم على طاعتك وإجابتك.. مأخوذ من قولهم: لب الرجل بالمكان وألبَّ.. إذا أقام فيه. قال ابن الأنبارى: وبهذا قال الخليل.

قال القاضى: قيل هذه الإجابة لقوله لإبراهيم ﷺ: «وأذن فى الناس بالحج».

وقال إبراهيم: فى معنى لبيك: أى قربا منك وطاعة، والإلباب: القرب.

وقال أبو نصر: معناه: أنا ملَبٌّ بين يديك، أى خاضع.

ويرفع صوته بالتلبية.

وقد ذكرنا كل هذه الأقوال ليتبين للقارئ المعنى الصحيح للتلبية.. أنه كل هذه المعانى.

عن خلاد بن السائب عن أبيه رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

«أتانى جبرائيل فأمرنى أن آمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية» [1] وزاد ابن ماجة: «فإنها شعار الحج».

أما المرأة فإنها لا ترفع صوتها بالتلبية.

ويكثر من التلبية:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما أهل مُهِل قط إلا بُشِّر، ولا كبر مكبر قط إلا بُشِّر».

قيل: يا رسول الله، بالجنة؟

قال: نعم» [٢].

وفى رواية للبيهقى قال، قال رسول الله ﷺ:

«ما أهل مُهل قط إلا آبت الشمس بذنوبه».

فإذا ما فعل ذلك، فقد صار محرما، وعليه أن يلتزم بالتزامات المحرم، ألا يحلق شعره، وألا يستعمل الطيب، وألا يقص أظافره، وألا يغطى رأسه، وألا يتصل بزوجته.. والآية القرآنية تقول: «فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج».

ولا يقتل الصيد: يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا

---

(١) رواه مالك وأبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى وقال: حديث حسن صحيح، وابن خزيمة فى صحيحه.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين رجال أحدها رجال الصحيح.

الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (١).

مما لا يحرم على المحرم:

قال ابن عباس رضى الله عنهما، فيما يروى البخارى رضي الله عنه: «يشم المحرم الريحان، وينظر فى المرآة ويتداوى، ويأكل الزيت والسمن».

وقال عطاء: يتختم ويلبس الهميان (الحزام).

وطاف ابن عمر رضى الله عنهما وهو محرم وقد حزم على بطنه بثوب. ولم تر عائشة رضى الله عنها بأسا بالحلى والثوب الأسود، المورد، والخف للمرأة.

وقال إبراهيم: لا بأس أن يبدل ثيابه.

* * *

(١) سورة المائدة آية ٩٥.

الفصل الثالث

مكة . . فضلها والمناسك فيها

مكـــة

وقف رسـول الله ﷺ، على مـشـارف مكة ليلة الهـجـرة، ونظر إلى المدينة المباركة، وقال:

«إنك لخـيـر أرض الله عـز وجل، وأحب بلاد الله إلـىَّ، ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت».

وقالها فى عودته إليها.

وكـيف لا؟.. والنظر إلى البـيت عـبـادة، والحـسنات فـيـهـا مضاعفة.

حرمة مكة:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

«لما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة، قام رسول الله ﷺ فى الناس. فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لم تحل لأحد كان قبلى، وإنما أحلت لى ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد كان بعدى، فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين» فقال العباس:

إلا الإذخر.

فقام أبو شاه: «رجل من أهل اليمن» فقال:

اكتبوا لى يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ:

«اكتبوا لأبى شاه».

قال الوليد:

فقلت للأوزاعى: ما قوله: «اكتبوا لى يا رسول الله» قال:

هذه الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ (١).

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن عباس - يوم الفتح - فتح مكة:

«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرَّفها، ولا يختلى خلاها».

فقال العباس:

«يا رسول الله.. إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: إلا الإذخر».

---

(١) متفق عليه.

ويروى الإمام البخارى ما يلى:

باب فضل الحرم... .. وقوله تعالى:

«إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين» (١).

وقوله جل ذكره:

«أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٢).

وعن على بن عبد الله بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما:

قال رسول الله ﷺ، يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرَّفها».

الصلاة فى الحرمين:

عن ابن الزبير رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة» (٣).

---

(١) النمل آية: ٩١.

(٢) القصص آية: ٥٧.

(٣) رواه أحمد وصححه ابن حيان.

المعاصى فى مكة:

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . (سورة الحج، آية ٢٥).

يقول ابن مسعود رضى الله عنه:

«ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١].

أى أنه على مجرد الإرادة: إرادة الظلم، والتعدى على أى وجه كان.

يقول الإمام الغزالى:

«ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات».

وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول:

«الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم، وقيل: الكذب أيضا.

وقال ابن عباس:

«لأن أذنب سبعين ذنبا فى غير مكة، أحب إلى من أن أذنب ذنبا واحدًا فى مكة».

---

(١) الحج آية ٢٥.

الاتجاه إلى البيت الحرام:

فإذا ما وصل بتوفيق الله إلى مكة، واطمأن على متاعه، اتجه إلى البيت الحرام، ويدخل البيت قائلا:

«باسم الله، والله أكبر، باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ».

ويقول:

«اللهم زد هذا البيت تشريفا، وتعظيما، وتكريما، ومهابة، وزد من شرفه وكرمه، ومن حجه، أو اعتمره، تشريفا وتكريما وتعظيما وبرا».

ويقول:

«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام».

ويبدأ الطواف: يبدأ طواف العمرة، إن كان أحرم بالعمرة، وطواف القدوم إن كان أحرم بالحج.

ويبدأ الطواف: مستلما الحجر الأسود، أو مقبلا له، أو مستقبلا له، مشيرا إليه إن لم يتمكن من تقبيله، أو لمسه.

عن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ قال له:

«يا عمر، إنك رجل قوى، لا تزاحم على الحجر فتؤذى الضعيف أن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وكبر» (١).

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٨ فى سيرته.

وعن أبى يعفور العبدى، واسمه وقدان، قال: سمعت رجلا من خزاعة حين قتل ابن الزبير وكان أميرا على مكة يقول: قال رسول الله ﷺ لعمر: يا أبا حفص: إنك رجل قوى، فلا تزاحم على الركن فإنك تؤذى الضعيف، ولكن إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فكبر وامض (١).

ويطوف مبتدئا من الحجر الأسود سبعة أشواط مختتما بالحجر الأسود فى النهاية. ويبتدئ الطواف فى الأول، وفى كل مرة، وهو مستقبل للحجر الأسود، قائلا فى كل شوط:

«باسم الله، والله أكبر، باسم الله، وبالله ومن الله، وإلى الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ».

ويدعو الله أثناء طوافه بما شاء من الدعاء، ويكثر من الاستغفار، ويؤكد العزم على التوبة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢).

ويمكن للطائف أن يكرر:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٣).

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٨ فى سيرته.

(٢) البقرة: ٢٠١. (٣) الأعراف: ٢٣.

ويكرر:

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١).

ويكرر أيضا:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

ويكرر أيضا:

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣).

وليس هناك دعاء معين محتم لكل شوط من أشواط الطواف، وخير ما يدعى به إنما هو الدعاء القرآني أو الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ.

ومن الأدعية الطيبة أن يقول الحاج حينما يستقبل الحجر الأسود:

(١) الممتحنة: ٤.
(٢) الحشر: ١٠.
(٣) البقرة: ٢٨٦.

«باسم الله، والله أكبر .. اللهم إيمانا بك، وتصديقا بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعا لسنة نبيك ورسولك، سيدنا محمد ﷺ».

فإذا ما حاذى باب الكعبة قال:

«اللهم أن البيت بيتك، والحرم حرمك، والأمن أمنك، وهو مقام العائذ بك من النار - مشيرا إلى مقام إبراهيم عليه السلام، وهو على يمينه - فأعذنى من النار».

فإذا ما وصل إلى الركن العراقى - وهو على يساره على فتحة الحجر بعد باب الكعبة، قال:

«اللهم إنى أعوذ بك من الشك والشرك، والشقاق والنفاق، وسوء الأخلاق، وسوء المنقلب فى الأهل والمال والولد».

فإذا ما حاذى الميزاب - الذى يطل على حجر إسماعيل من فوق الكعبة - قال:

«اللهم أظلنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، واسقنا من كأس سيدنا محمد ﷺ، شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبدا، يا ذا الجلال والإكرام».

فاذا ما صل إلى الركن الشامى قال:

«اللهم اجعله حجا مبرورا، وذنبا مغفورا، وسعيا مشكورا، وعملا مقبولا، وتجارة لن تبور».

وعند الركن اليمانى، يقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر، ومن عذاب القبر، وأسألك العفو والعافية، فى الدين والدنيا والآخرة».

وبين الركن اليمانى والحجر الأسود، يقول:

«ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

ويستمر هكذا فى كل دورة من دورات الطواف.

وبعد أن ينتهى الطواف يصلى ركعتين بنية سنة الطواف، يصليهما فى مقام إبراهيم، فإن لم تتيسر له الصلاة فى مقام إبراهيم صلاهما فى أى مكان آخر من البيت.

ثم يتوجه إلي بئر زمزم ويشرب منه، وماء زمزم لما شرب له، فيدعو عند شربه بما شاء.

ثم يتوجه إلى السعى، مبتدئا من الصفا، صاعدا فوقه، مستقبلا الكعبة، بادئا باسم الله، والله أكبر.

ويتجه إلى المروة فيصعد فوقها، ويستقبل الكعبة ويبتدئ النزول باسم الله، والله أكبر، متجها إلى الصفا.

وهكذا إلى أن تتم سبعة أشواط ما بين الصفا والمروة، ويدعو فى أثناء ذلك بما شاء من الدعاء.

ومن الأدعية المأثورة فى ذلك:

«رب اغفر وارحم، واعف عما تعلم، إنك أنت الأعز الأكرم».

ولقد ورد فى كتب السنة أن رسول الله ﷺ حينما دنا من الصفا قرأ: «إن الصفا والمروة من شعائر الله».

ثم قال: أبدأ بما بدأ الله به.

فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شىء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم دعا بعد ذلك، فقال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزل، حتى إذا انصبت قدماه فى الوادى رمل، حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة فرقى عليها، حتى نظر إلى البيت فقال عليها كما قال على الصفا [1].

وعن حبيبة بنت أبى تجرأة قالت:

دخلت دار حصين فى نسوة من قريش، والنبى ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، قالت: «وهو يسعى يدور به ازاره من شدة السعى، وهو يقول لأصحابه: «اسعوا إن الله كتب عليكم السعى»[2].

والمراد بالسعى ها هنا: هو الذهاب من الصفا إلى المروة ومنها إليها.

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٩.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٠.

وليس المراد بالسعى ها هنا الهرولة والإسراع، فإن الله لم يكتبه علينا حتما بل لو مشى الإنسان على هيئته فى السبع الطوافات بينهما، ولم يرمل فى المسيل أجزأه ذلك عند جماعة العلماء لا نعرف بينهم اختلافا فى ذلك.

وقد نقله الترمذى رحمه الله عن أهل العلم، ثم قال: حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن كثير بن جهمان، قال:

رأيت ابن عمر يمشى فى المسعى، فقلت: أتمشى فى السعى بين الصفا والمروة؟

فقال: «لئن سعيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى ولئن مشيت لقد رأيت رسول الله ﷺ يمشى، وأنا شيخ كبير» (١).

وقال أبو داود: حدثنا أبو سلمة موسى، حدثنا حماد، أنبأنا أبو عاصم الغنوى عن أبى الطفيل، قال: قلت لابن عباس:

يزعم قومك أن رسول الله ﷺ قد رمل بالبيت وأن ذلك من سنته، قال: «صدقوا وكذبوا» .. قلت: «ما صدقوا وما كذبوا» قال:

«صدقوا؟: رمل رسول الله، وكذبوا: ليس بسنة، إن قريشا قالت زمن الحديبية: دعوا محمدا وأصحابه حتى يموتوا موت النغف - النغف: الدود: وهو يضرب للمستحقر - فلما صالحوه على أن يحجوا من العام المقبل فيقيموا بمكة ثلاثة أيام، فقدم

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٠.

رسول الله ﷺ، والمشركون من قبل قعيقعان، فقال: رسول الله لأصحابه: «ارملوا بالبيت ثلاثا، وليس بسنة» قلت: «يزعم قومك أن رسول الله طاف بين الصفا والمروة على بعير، وأن ذلك سنة.. قال: صدقوا وكذبوا» قلت: ما صدقوا وما كذبوا؟ قال:

صدقوا: قد طاف رسول الله ﷺ.

وكذبوا: ليست بسنة.. كان الناس لا يُدفعون عن رسول الله ﷺ، ولا يُصرفون عنه، فطاف على بعير ليسمعوا كلامه، وليروا مكانه، ولا تناله أيديهم: «هكذا رواه أبو داود» (١).

ويمكن أن يدعو بما سبق أن ذكرناه فى أدعية الطواف.

وحينما يتم السعى بين الصفا والمروة يكون الحاج بذلك قد أتم العمرة، فليست العمرة إلا طوافا وسعيا.

ويتحلل الحاج من عمرته، فيحلق - إذن - رأسه، أو يقص من شعره ويحل له إذن كل شىء كان محظورا: الطيب، لبس المخيط، وغير ذلك . ويسمى هذا بالتمتع.

وعلى المتمتع شكر الله تعالى .. وشكر الله على التمتع هو ما بينه سبحانه بقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (٢).

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٥.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٦.

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة، ويسمى يوم التروية يحرم من جديد، بالطريقة التى بيناها سابقا.

هذا إذا كان قد تمتع، أما إذا كان قد أحرم بالحج من قبل، فلا يحرم من جديد، وإنما يذهب إلى منى ليبيت فيها.

روى أبو داود بسنده أن رسول الله ﷺ صلى الظهر يوم التروية والفجر يوم عرفة بمنى.

وهذا المبيت: هو سنة، فإن شاء ذهب إلى منى متبعا للسنة، وإن شاء أقام بمكة ولا إثم عليه.

فإذا ما كان اليوم التاسع توجه من منى أو من مكة إلى عرفات.

* * *

الفصل الرابع

إلى عرفـــــات

يوم عرفة: هو التاسع من ذى الحجة .. وعرفات: هو المكان المرتفع المنبسط على اثنى عشر ميلا من مكة، وهو موقف الحاج فى ذلك اليوم، وهو اسم فى لفظ الجمع.. سميت بذلك:

١ - لأن آدم وحواء تعارفا بها.

٢ - أو لقول جبريل لإبراهيم عليهما السلام لما علمه المناسك: أعرفت؟ قال: عرفت.

٣ - أو لأنها مقدسة معظمة كأنها عرفت - أى طيبت- والعرف: الريح الطيبة (١).

ومن أجلّ ما يروى فى سبب التسمية أنه لتعرف العباد إلى الله بالعبادات والأدعية.

فضل يوم عرفة:

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة» (٢).

---

(١) لقد قيل فى تفسير قوله تعالى (عرفها لهم) طيبها لهم.

(٢) رواه مسلم.

وفضل يوم عرفة مشهور: فيه تنزل الرحمة أرسالا أرسالا، وفيه يتجاوز الله عن الذنوب صغرت أو عظمت.

ولقد روى الإمام مالك - بسنده - أن رسول الله ﷺ قال: (ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر، ولا أغيظ منه فى يوم عرفة). وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام.

وفى مسند الفردوس أن رسول الله ﷺ قال: «أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له».

ويوم عرفة هو من الأيام العشر الأولى من ذى الحجة.. وفى هذه الأيام العشر الأول يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام - يعنى أيام العشر» نرى المسلمين يوم عرفة يجتمعون، وقد اختلفت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، لا يجمعهم إلا الدين، ولا يربطهم إلا العبودية لله رب العالمين.

الكل فى مكان واحد، وزمان واحد، يبتهلون إلى ربهم ليغفر لهم، ويقبل حجهم، ويتم نعمته عليهم، الكل راج خاشع، داع مبتهل.

إذا كان يوم عرفة يوم جمعة:

وقال بعض السلف فيما رواه الإمام الغزالى فى كتابه الخالد: إحياء علوم الدين:

«إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة، غفر لكم أهل عرفة، وهو أفضل يوم فى الدنيا، وفيه حج الرسول ﷺ حجة الوداع، وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾. (سورة المائدة، الآية ٣)

قال أهل الكتاب: لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أشهد لقد أنزلت هذه الآية فى يوم عيدين اثنين: يوم عرفة، ويوم جمعة.. على رسول الله ﷺ، وهو واقف بعرفة.

قال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العميس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين.. إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت اتخذنا ذلك اليوم عيدا.. قال: وأى آية هى؟ .. قال: قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التى نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة يوم جمعة [1].

وقال ﷺ: «اللهم اغفر للحاج، ولمن استغفر له الحاج».

---

(١) ابن كثير (سيرة) جـ ٤ ص ٣٥٣.

الحج عرفة:

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحج عرفة».

ولهذه الكلمة مغزاها ومعناها.. وذلك: أن مناسك الحج يمكن فى بعضها التقديم والتأخير، ويمكن فى بعضها الآخر أن يستعاض عنه بفدية أو بإنابة وتوكيل، عدا الوقوف بعرفة، فإن له وقتا محددا إذا مر ولم يقم الإنسان فيه بالوقوف بعرفة، فإن حجه يكون قد بطل.

ومن أجل ذلك، قال رسول الله ﷺ : «الحج عرفة».

ويمكن أن ننظر إلى قوله ﷺ من زاوية أخرى، هى أن ثمرة الحج إنما تجتنى فى عرفة، ففيه تجتمع الأرواح، وقدتزكت بالتوبة والإحرام والطواف والسعى، تتجه إلى الله فى ضراعة، وتدعوه - سبحانه - فى خضوع، فتفيض الرحمات، وتنزل على العباد الذين يدعون الله سبحانه وتعالى، طالبين المغفرة.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1].

ومعنى (الحج عرفة) أيضا: أنه تعرف على الله سبحانه وتعالى مصدر الخير كل الخير، ومصدر النعمة كل النعمة، ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنسانى.

---

(١) البقرة: ١٨٦.

إن الذى يتعرف على الله يصبح من الكمال الإنسانى فى
.ورة.. وما كانت طريقة التعرف على الله فى يوم من الأيام قراءة
راء الفلاسفة، وهى متضاربة متعارضة.

وإنما سبيل التعرف إلى الله توبة نصوح واستجابة مخلصة، وطواف بالبيت فى تضرع وابتهال إلى رب البيت، وسياحة من الصفاء إلى الرى، ومن رى يزداد إلى صفاء يصفو، فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نورا يعرفها به، فتتعرف عليه وتلتزمه، وتقف عنده، وتنتهى إليه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾. (سورة النجم، الآية ٤٢).

وليس هناك منتهى دون الله سبحانه وتعالى، وكل ما دونه منتهى مزيف فاسد.. أما المنتهى الحق، فهو الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾. (سورة النجم، الآية ٤٢).

موقف رسول الله ﷺ فى عرفات:

يستحب أن يقف عند الصخرات المذكورات فى الآثار، وهى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذى يتوسط أرض عرفات، فهذا هوالموقف المستحب.

وأما ما أشتهر بين العوام من الاعتناء بصعود الجبل،

وتوهمهم أنه لا يصح الوقوف إلا فيه فغلط .. بل الصواب جواز الوقوف فى كل جزء من أرض عرفات.

وأن الفضيلة فى موقف رسول الله ﷺ عند الصخرات، فإن عجز فليقرب منه بحسب الإمكان.

عرفة كلها موقف، ومنى كلها منحر:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحرت ها هنا، ومنى كلها منحر، فانحروا فى رحالكم.. ووقفت ها هنا، وعرفة كلها موقف، ووقفت ها هنا، وجمع موقف» (١).

صوم يوم عرفة:

فيما يتعلق بصوم يوم عرفة، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن كان مؤديا للحج، ومن كان مقيما فى بلده .. فالسنة فيما يتعلق بالمقيم ببلده أن يصوم.. فقد روى الإمام مسلم - بسنده - عن أبى قتادة، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم عرفة، فقال «يكفر السنة الماضية والباقية».. هذا بالنسبة للمقيم.

أما بالنسبة للحاج، فالسنة أن يفطر.. فلقد روى الشيخان - بسندهما - عن أم الفضل بنت الحارث أن أناسا تماروا - أى اختلفوا - عندها يوم عرفة فى صيام رسول الله ﷺ فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم قالت: فأرسلت إليه بقدح لبن

(١) رواه مسلم.

وهو واقف على بعيره، فشرب» .. وإفطار الحاج إنما هو من أجل أن يقوى على العبادة وعلى المجاهدة فى هذا اليوم المبارك.

الدعاء يوم عرفة:

روى الترمذى من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال:

أفضل الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير).

وللإمام أحمد - أيضا - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان أكثر دعاء النبى ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «دعائى ودعاء الأنبياء قبلى عشية عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

وعن على رضي الله عنه قال: كان أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ يوم عرفة فى الموقف:

«اللهم لك الحمد كالذى نقول، وخير مما نقول.. اللهم لك صلاتى ونسكى، ومحياى ومماتى، ولك رب تراثى.. أعوذ بك من

عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر.. اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح».

وقال ﷺ: «إن أكثر دعاء من كان قبلى، ودعائى فى يوم عرفة، أن أقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

اللهم أجل فى بصرى نورا، وفى سمعى نورا، وفى قلبى نورا، اللهم اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر ما يلج فى الليل، وشر ما يلج فى النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر».

وعن ابن عباس قال: كان فيما دعا به رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «اللهم إنك تسمع كلامى، وترى مكانى، وتعلم سرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير. الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه.

أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه.. اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا، وكن بى رءوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين».

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.. وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب [1].

وينبغى لمن وقف بعرفة أن يدعو بكل هذه الأدعية التى وردت عن رسول الله ﷺ وسمع بعض الصحابة منها ما لم يسمعه الآخر فنقل كل واحد منهم ما سمع فجزاهم الله خيرا على نقلهم ما سمعوه عن الرسول ﷺ.

خطبة الرسول في حجة الوداع:

قال ابن اسحاق:

ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس! .. اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا.. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. وقد بلغت.. فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.. وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون..

(١) سيرة ابن كثير: جـ ٤ ص ٣٤٩.

قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد، أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه أن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما، ويحرمونه عاما.. ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.. وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم.. ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا.. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا، كتاب الله وسنة رسوله.

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه

عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم.. اللهم هل بلغت ؟ فذكر لى أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أشهد».

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ يوم عرفة:

«أيها الناس، إن الله تطول عليكم فى هذا اليوم، فغفر لكم، إلا التبعات فيما بينكم.. ووهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل، فادفعوا باسم الله».

ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر، فقد فاته الحج.

وعن عروة بن مضرس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من شهد صلاتنا هذه - يعنى بالمزدلفة - فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهارا، فقد أتم حجه، وقضى تفثه» (١).

وفى الصحيحين، عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب بعرفات: «من لم يجد النعلين فليلبس الخفين، ومن لم يجد إزارا فيلبس السراويل للحرم» (٢).

وعن عمرو بن خارجة قال: بعثنى عتاب بن أسيد إلى رسول

---

(١) رواه الخمسة، وصححه الترمذى، وابن خزيمة ومعنى قضى تفثه أى اغتسل وتطهر من الأوساخ.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٢.

الله ﷺ وهو واقف بعرفة فى حاجة، فبلغته، ثم وقفت تحت ناقته وإن لعابها ليقع تحت رأسى، فسمعته يقول:

(أيها الناس، إن الله أدى إلى كل ذى حق حقه، وأنه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا) [1].

وقال البخارى، حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاح بن يوسف أن يأتم بعبد الله بن عمر فى الحج، فلما كان يوم عرفة جاء ابن عمر وأنا معه حين زاغت الشمس - أو زالت الشمس، فصاح عند فسطاطه: أين هذا؟ فخرج إليه، فقال ابن عمر: الرواح.. فقال: الآن؟ قال: نعم، فقال: أنظرنى حتى أفيض على الماء [2].

★ ★ ★

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٢.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٢.

الفصل الخامس

إلى منـــــــى

يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ (١).

والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس، فى اليوم التاسع من ذى الحجة .. ورد فى صحيح الإمام مسلم، فى وصف حجة رسول الله ﷺ أنه:

(لم يزل واقفا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلا، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه).

ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام، حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله، وهو يقول بيده اليمنى: أيها الناس، السكينة، السكينة حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء، بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر (بالمزدلفة) حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء (ناقته ﷺ).. حتى أتى المشعر الحرام (وهو جبل معروف فى المزدلفة) .. فاستقبل القبلة، فدعاه - أى دعا الله سبحانه وتعالى - وكبره وهلله ووحده، فلم

(١) البقرة: ١٩٨.

يزل واقفا حتى أسفر جدا - أى أسفر الصبح - فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن العباس.

وصل رسول الله ﷺ إلى جمرة العقبة.. عن جابر رضي الله عنه قال: «رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد ذلك (فى الأيام التالية) فاذا زالت الشمس».

وعن ابن عباس وأسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قالا:

«لم يزل النبى ﷺ يلبى حتى رمى جمرة العقبة».

وعن ابن عباس، عن الفضل قال: «أفضت مع رسول الله ﷺ، من عرفات، فلم يزل يلبى حتى رمى جمرة العقبة، يكبر مع كل حصاة، ثم قطع التلبية مع آخر حصاة.

وعن قدامة بن عبد الله، وهوابن عمار رضي الله عنه قال:

«رأيت رسول الله ﷺ يرمى الجمرة يوم النحر على ناقة صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك». وكان رسول الله ﷺ يكبر مع كل حصاة.

ولما رمى رسول الله ﷺ الجمار، نحر الهدى.

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (رمى رسول الله ﷺ جمرة العقبة، ثم ذبح، ثم حلق).

وعن ابن عباس أنه قال: «إذا رميتم الجمرة فقد حللتم من كل شىء كان عليكم حراما إلا النساء حتى تطوفوا بالبيت».. فقال رجل: والطيب يا أبا العباس؟ قال له: إنى رأيت رسول الله ﷺ يضمخ رأسه بالمسك، أفطيب هو أم لا؟ [1].

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إذا رميتم وحلقتم فقد حل لكم الطيب وكل شىء إلا النساء» [2].

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، وطاف، ثم عاد إلى منى، وتحلل من إحرامه.

هذا الطواف يمكن أن يقوم به الإنسان يوم العيد للتحلل من إحرامه، ويمكن أن يؤخره إلى ما بعد الانتهاء من أيام الرمى.

أما فيما يتعلق بأيام الرمى، فإنها يوم العيد.. وفيه يرمى الإنسان جمرة العقبة فقط - أما فى اليوم الثانى فإنه يرمى الجمرات الثلاث - وفى اليوم الثالث يرمى الجمرات الثلاث أيضا- ثم له بعد ذلك أن يتعجل الذهاب إلى مكة، وله أن يمكث يوما آخر، يرمى فيه الجمرات الثلاث أيضا، يقول سبحانه:

«فمن تعجل فى يومين (بعد العيد) فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى، واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون».

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٩.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وفى إسناده ضعف.

وقت رمى الجمار:

إن أمر رمى الجمار أصبح الآن مشكلة من المشاكل الصعبة، وذلك لشدة الزحام، ومن أجل ذلك أحببنا أن نضع أمام القارئ بعض الآراء فى ذلك.

وقت رمى جمرة العقبة:

يرى الشافعية ويرى الحنابلة أن رمى جمرة العقبة يجوز إذا انتصفت ليلة يوم النحر، ومع أن ذلك يجوز، فإن المسنون من بعد طلوع الشمس إلى الزوال.

وقت الرمى أيام التشريق:

يرى جمهور الفقهاء أن السنة أن يرمى الجمار فى غير يوم الأضحى بعد الزوال، وخالف فى ذلك عطاء وطاوس، قالا : يجوز قبل الزوال مطلقا، ورخص الحنفية فى الرمى فى يوم النفر قبل الزوال (عن فتح البارى) وفى كتاب الفروع يروى شمس الدين المقدسى أبو عبد الله محمد بن مفلح أن حنبل نقل أنه يجوز رمى متعجل قبل الزوال وينفر بعده» ويقول:

«ونقل ابن منصور: إن رمى عند طلوعها متعجلا ثم نفر، كأنه لم ير عليه دما» أ . هـ.

ويقول عند رمى كل حصاة: باسم الله والله أكبر، وحصى الرمى يجمع فى المزدلفة قبل الوصول إلى منى.

.وإلى هنا أى بعد الرمى وطواف الإفاضة تنتهى أعمال الحج، فيفارق الحاج منى إلى مكة.. ثم يقيم الحاج بمكة داعيا مستغفرًا، منيبا طائفا، متضرعا إلى الله - سبحانه وتعالى - إلى أن يحين الذهاب إلى المدينة المنورة، أو إلى بلده إن كان قد زار وتشرف بالسلام على رسول الله ﷺ.

وكما خطب رسول الله ﷺ فى عرفات، فإنه خطب فى منى، وقد حفظ بعض الصحابة من خطبته ما لم يحفظه الآخرون.. ونحن نورد هنا بعضا من مرويات الصحابة - رضوان الله عليهم - ويبدو أن بعض الأمور ذات الأهمية البالغة التى ذكرها رسول الله ﷺ فى خطبته فى عرفات، قد أعادها فى منى، وذلك لأهميتها.

عن أبى حرة الرقاشى، عن عمه قال:

«كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله ﷺ فى أوسط أيام التشريق، أذود عنه الناس، فقال: «يا أيها الناس، أتدرون فى أى شهر أنتم، وفى أى يوم أنتم، وفى أى بلد أنتم؟.. قالوا، فى يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا إلى أن تلقوه».

ثم قال:

اسمعوا منى تعيشوا، ألا لا تظلموا.. ألا لا تظلموا .. ألا لا تظلموا.. إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ألاَ إن كل

دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه إلى يوم القيامة.. وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل.

ألا إن كل ربا فى الجاهلية موضوع، وأن الله قضى أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، قرأ.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (١).

ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكنه فى التحريش بينكم.

واتقوا الله فى النساء، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإن لهن عليكم حقا، ولكم عليهن حق .. ألا يوطئن فرشكم أحدا غيركم، ولا يأذن فى بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجرون فى المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.. وإنما أخذتموهن بأمانة

---

(١) التوبة: ٣٦.

الله، واستحللتهم فروجهن بكلمة الله.. ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وبسط يده وقال: ألا هل بلغت؟ .. ألا هل بلغت؟ .. ثم قال:

«ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ أوعى من سامع» (١).

وعن يحيى بن الحصين قال، عن جدته أم الحصين قالت: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة وبلالا، أحدهما آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر، حتى رمى جمرة العقبة، قالت: فقال رسول الله ﷺ، قولا كثيرا، ثم سمعته يقول:

«إن أمر عليكم عبد مجدع - حسبتها قالت: أسود - يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا» (٢).

وعن سلمة بن قيس الأشجعى قال: قال رسول الله ﷺ، فى حجة الوداع:

«إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا» (٣).

وعن سليمان بن عمرو، عن أبيه، قال: شهدت رسول الله ﷺ فى حجة الوداع يقول:

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٢.
(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩١.
(٣) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٢.

«أيها الناس - ثلاث مرات - أى يوم هذا؟ .. قالوا: يوم الحج الأكبر.. قال: فإن دمائكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، ولا يجن جان على ولده - ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلدكم هذا، ولكن سيكون له طاعة فى بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى، ألا وإن كل ربا من ربا الجاهلية يوضع، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون» (١).

عن أبى أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يومئذ على الجدعاء واضع رجليه فى الغرز، يتطاول ليسمع الناس، فقال: بأعلى صوته: ألا تسمعون؟

فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله، ماذا تعهد إلينا؟ فقال: «اعبدوا ربكم، وصلوا خمسا، وصوموا شهركم، وأطيعوا إذا أمرتم، تدخلوا جنة ربكم» (٢).

★ ★ ★

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٤.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٥.

الفصل السادس

من مسائل الحج

اللهم حجة لارياء فيها:

ليس الحج ترفا، ولا سياحة استمتاعية. ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل فى التقشف فى الحج، وسار على نسقه من اتبع هديه:

عن أنس، أن النبى ﷺ، حج على رحل رث، وقطيفة تساوى - أو لا تساوى - أربعة دراهم. فقال:

«اللهم حجة لا رياء فيها» (1).

وعن أنس، أن النبى ﷺ، حج على رحل رث، وتحته قطيفة، وقال: «حجة لا رياء فيها، ولا سمعة» (2).

وعن بشر بن قدامه الضبابى، قال:

«أبصرت عيناى حبيبى رسول الله ﷺ، واقفا بعرفات مع الناس على ناقة له حمراء قصواء تحته قطيفة بولانية، وهو يقول:

«اللهم اجعلها غير رياء، ولا مباهاة ولا سمعة»، والناس يقولون:

---

(1) انظرى السيرة لابن كثير جـ ٤ ص ٢١٩ والحديث رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده والبزار بنحوه.

(2) انظر السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ٢١٨ والحديث رواه البزار فى مسنده.

هذا رسول الله ﷺ [1].

عن ثمــــامــــة قـــال: «حج أنس على رحل رث، ولم يكن شحيحا» [2].

نفقات الحج:

الحج سواء أكان حج الفريضة، أم كان حج نافلة، هو قربى إلى الله سبحانه وتعالى، والقربى يجب أن يتحرى الإنسان فيها أن تكون بمال حلال.

ومال الزوج بالنسبة للزوجة حلال إذا كان بإذنه، وعن رضا عنه، ومالها بالنسبة له حلال إذا كان عن رضا منها وبإذنها.

والأمر كذلك فيما يتعلق بمال الوالد، وبالنسبة للولد، ومال الولاد بالنسبة للوالد.

إما المال المهدى من أجنبى، فللإنسان أن يحج منه إذا برئ المال من الشبهة: فلا يكون المال المهدى من تاجر مخدرات مثلا، أو ممن يتجر فى الخمور، ومادام الله سبحانه وتعالى، لا يوجب الحج على غير المستطيع، فإن فى سعة رحمة الله عذرا لمن لم يجد المال الحلال الصافى، والله طيب لا يقبل إلا طيبا.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٠ والحديث رواه البيهقى.

(٢) رواه الإمام البخارى.

حج من عليه دين:

ما حكم من حج بيت الله، وعليه دين، فهل هي حجة مقبولة، أم مردودة؟

يقول الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (١).

ومن الاستطاعة: أن توجد النفقة دون أن يكون على الإنسان دين للآخرين، فإذا كان على الإنسان دين يستغرق ما معه من نقود، أو يستغرق جزءا من نفقات الحج، فإنه غير مستطيع، فلا يجب عليه الحج.

وإذا كان على الإنسان دين، فحج دون أن يبالى بالدين أو الدائن، فإن حجه مردود عليه، وقد كان الرسول ﷺ يتشدد جدا فى أداء الدين، بل كان ﷺ لا يصلى على المدين أبدا، فإن كان على الميت دين قال:

«صلوا على صاحبكم» فإذا ما سدد دينه، صلى عليه.

ومادام الحج لا يجب إلا عند الاستطاعة، ومادام المدين غير مستطيع، فالأولى بل الواجب عليه أداء الدين، ثم الحج عند الاستطاعة.

---

(١) سورة آل عمران آية: ٩٧.

الحج عن الغير:

روى أبو دواد، وابن ماجه، وغيرهما أن النبى ﷺ، سمع رجلا يقول: «لبيك عن شبرمة». فقال له: «ومن شبرمة».

قال: أخ لى، أو قريب لى.

قال ﷺ: أحججت عن نفسك؟

قال: لا.

قال: «فحج عن نفسك، ثم عن شبرمة».

وروى الإمام مسلم، بسنده، عن بريدة، عن أبيه رضى الله عنهما، أن امراة أتت رسول الله ﷺ، فأخذت تسأله عن مسائل، وكان من بينها أن قالت عن أمها: إنها لم تحج قط. ثم سألت: أفأحج عنها؟

فقال ﷺ: «حجى عنها».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟

قال: «نعم» (١).

وعن لقيط بن عامر رضي الله عنه، أنه أتى النبى ﷺ فقال: إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج، ولا العمرة، ولا الظعن؟

---

(١) متفق عليه.

قال: «حج عن أبيك واعتمر» [1].

أداء النذر عن الغير:

عن ابن عباس رضى الله عنهما، إن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت:

«إن أمى نذرت أن تحج، ولم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟

قال: نعم، حجى عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء» [2].

يقول الإمام النووى:

«الجمهور على أن النيابة فى الحج جائزة عن الميت».

ويقول: «إن الجمهور على أن النيابة فى الحج جائزة عن العاجز، الميئوس من برئه».

والوضع الطبيعى فى هذه المسألة أنه ما دام السائل قد حج عن نفسه، فإنه يجوز له - ما دام قد أدى الفريضة - أن يحج عن غيره، العاجز، أو الميت، ويجوز فى النيابة فى الحج أن يحج الرجل عن المرأة، والمرأة عن الرجل.

ويقول الإمام النووى: قال الشافعى: «يجوز الحج عن الميت، عن فرضه ونذره، سواء أوصى به أم لا، ويجزئ عنه».

(١) رواه أبو داود والترمذى، وقال حديث حسن صحيح.
(٢) رواه الإمام البخارى والإمام مسلم.

ومذهب الشافعى وغيره، أن ذلك واجب فى تركته، ويستوى فى ذلك أن ينوب فى الحج عنه شخص فى مكة، أو فى المدينة، أو فى إقليم آخر، بعد أو قرب».

ولا حرج:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، وقف فى حجة الوداع، فجعلوا يسألونه، فقال رجل:

لم أشعر، فحلقت قبل أن أذبح؟

قال: اذبح ولا حرج.

وجاء آخر فقال: لم أشعر، فنحرت قبل أن أرمى؟

قال: ارم ولا حرج.

فما سئل يومئذ، عن شىء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» [(١)].

بعض ما لا يفعله المحرم:

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا ينكح المحرم، ولا ينكح، ولا يخطب».

وعن أبى قتادة الأنصارى رضي الله عنه فى مصيدة الحمار الوحشى، وهو غير محرم، قال، قال: رسول الله ﷺ لأصحابه وكانوا محرمين:

---

(١) رواه الإمام مسلم.

هل منكم أحد أمره أو أشار إليه بشىء؟

قالوا: لا..

قال: فكلوا ما بقى من لحمه [1].

دواب يقتلن فى الحل والحرم:

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«خمس من الدواب كلهن فواسق، يقتلن فى الحل والحرم: العقرب، والحدأة، والغراب، والفأرة، والكلب العقور» [2].

أولئك لهم نصيب مما كسبوا:

سأل رجل ابن عباس رضى الله عنهما فقال:

إنى أكرى نفسى إلى مكة، وقد زعم الناس أنه ليس لى حج..

فقال: بل أنت ممن قال الله فيهم: «أولئك لهم نصيب مما كسبوا».

وفى رواية، فقال: «فإذا فعلت المناسك فأنت حاج».

إذا بلغ الصبي:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

«أيما صبى حج، ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى، وأيما عبد حج ثم أعتق، فعليه أن يحج حجة أخرى» (١).

المحلقون والمقصورن:

روى البخارى ومسلم رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«اللهم ارحم المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله.. قال فى الثالثة: «والمقصرين» (٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال:

«ليس على النساء حلق وإنما يقصرن» (٣).

يبعث ملبيا:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

بينا رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة، إذ وقع عن راحلته، فأقصعته، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه بثوبيه، ولا تخمروا رأسه، ولا تحنطوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا»(٤).

وفى رواية لهم: أن رجلا كان مع النبى ﷺ فوقصته ناقته وهو محرم، فمات، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه ابن شيبة والبيهقى ورجاله ثقات.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو دواد بإسناد حسن.

(٤) «وقصته ناقته» معناه: رمته ناقته فكسرت عنقه، وكذلك فأقصعته.

«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه، فى ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا».

وفى رواية لمسلم: فـأمـرهم رسـول الله ﷺ أن يغسلوه بماء وسدر، وأن يكشفوا وجهه، حسبته قال: «ورأسه، فإنه يبعث وهو يهلل».

إذا حاضت المرأة قبل الطواف:

عن عائشة رضى الله عنها قالت:

«خرجنا مع رسول ﷺ لا نذكر إلا الحج، حتى جئنا سرف، فطمثت فدخل على رسول الله ﷺ وأنا أبكى، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: والله لوددت أنى لم أكن خرجت هذا العام.. قال: مالك؟ .. لعلك نفست..

قلت: نعم. قال: هذا شىء كتبه الله على بنات آدم، افعلى ما يفعل الحاج غير ألا تطوفى بالبيت حتى تطهرى.

قالت: فلما كان يوم النحر طهرت، فأمرنى رسول الله ﷺ فأفضت .. قالت: فأتينا بلحم بقر، فقلت: ما هذا؟

قالوا: أهدى رسول الله ﷺ عن نسائه البقرة».

الحج وغفران الذنوب:

روى الشيخان بسندهما، عن أبى هريرة، رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه».

وروى الشيخان بسندهما، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور، ليس له جزاء إلا الجنة».

والحج المبرور، هو الحج الذى يتقبله الله سبحانه - وهو والحج الذى يتقبله الله - سبحانه - هو الحج الذى توفر فيه الإخلاص.

ويبدأ توافر الإخلاص بالنية نفسها، نية الحج، لابد أن تكون خالصة لله سبحانه، فلا يعتبر الإنسان الحج دعاية لنفسه، أو رحلة سياحية للمتعة، أو رحلة يراد بها غير وجه الله سبحانه بأى وضع من الأوضاع.

ولابد أن يصاحب الإخلاص كل أعمال الحج، ومن أول هذه الأعمال:

التوبة الخالصة النصوح.. التوبة التى تجب ما قبلها من سيئات ومعاصى .. لأنها إقلاع بات عن الذنوب والآثام، وندم باك على حياة مضت، لم يرض الله سبحانه عما شابها من سيئات، وعزم مصمم على الطهر الطاهر النقى بتوفيق الله، فيما يستقبل من حياة تغير مجراها من خضوع لهوى النفس ونزغات الشيطان، إلى خضوع للخير، ومتابعة للرحمن.

ويسجل كل ذلك بلبس الملابس البيضاء النقية بعد الاستحمام، تطهيرا للظاهر، ليكون الصفاء شكلاومعنى، وتكون الطهارة ظاهرة وباطنة.

ويسجل ذلك كله نطقا بلسانه، كما سجله عملا بجوارحه، وعزما بقلبه.

فيعاهد الله على الاستجابة له فيما أمر، وعلى الاستجابة له فيما نهى، وعلى أن يكون له وحده قائلا سرا وجهرا:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريكث لك».

هذا العهد يعلنه إذا كان فى جمع من الناس، ويعلنه إذا كان منفردا.

إنه يعلنه إذا التقى بصديق، ويعلنه إذا فارق الصديق.

يعلنه إذا علا شرفا، ويعلنه إذا هبط واديا.

إنه الشعار، والطابع، والسمة، أياما عدة.. وذلك من أجل أن يصير متمكنا فى النفس فينقلب من تطبع إلى طابع، ومن تخلق إلى خلق، ومن تكلف إلى شىء محبوب.

وبعد: فإن أعمال الحج كلها، إنما تهدف إلى تحقيق الاستجابة لله ورسوله .. فالحاج وهو داخل إلى البيت الحرام يعلن أيضا الاستجابة بصورة أخرى، إنه يبدأ الدخول بقوله:

«باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وفى سبيل الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ».

وليس الطواف نفسه إلا محاولة لإعلان استجابة بصورة ثالثة.

وذلك أن الطائف بالبيت يرجو بطوافه رضاء رب البيت ومغفرته، وهو يعاهد الله بطوافه، أن يكون عندما أحب الله، وأن يكون دائما فى مرضاته.

فإذا ما تحققت الاستجابة لله تعالى ورسوله ﷺ تحقق الحج المبرور، وظفر الإنسان بالجزاء، وهو مغفرة الذنوب، ودخول الجنة.

الحج يغسل الذنوب:

«الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء الدرن»

والحج - إذن - يحدث من غير شك تغييرا فى الإنسان.

إن من حج تزداد أحواله - على حد تعبير بعضهم - إنها تزداد من غير شك خيرا، وتزداد نورا، وتزداد إشراقا وصفاء وشفافية - وإن هذه التلبية التى ينطق بها الحاج فى كل لحظة، وإن هذه المناسك التى تؤدى، وإن هذه الذكريات التى تمر بالذهن، وهذا التجرد الكامل لله سبحانه وتعالى، وهذا الاتجاه إليه بالكيان الإنسانى كله.

إن كل هذا نتيجته: الخير والهداية.

وحتى لو فرضنا أن الحاج لم يؤد المناسك على الوجه الأكمل، ولا على الطريقة المثلى، وإنما أداها على وجه قريب من ذلك، فإن حجه يحدث فيه تغييرا إلى الأحسن والأمثل إن شاء الله تعالى.

إن الحجاج وفد الله وزواره، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم، وحق على رب البيت أن يكرم زائره.

جزاء الحج المبرور

روى الإمام البخارى والإمام مسلم، وغيرهما - بسندهما - عن أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«العمرة إلى العمرة، كفارة لما بينهما .. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» (١).

وكيف يكون الحج كافيا لدخول الجنة؟

إن رسول الله ﷺ، لم يقل: «الحج ليس له جزاء إلا الجنة».

وإنما قال: الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

والمسألة - إذن - هى تفسير الحج المبرور، والحج المبرور من أفضل الأعمال.

فقد روى الإمام البخارى، والإمام مسلم - بسندهما - عن أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، سئل عن أفضل الأعمال، فقال:

(١) الحديث حسن صحيح.

«الإيمان بالله.

قيل، ثم ماذا؟

قال؟: الجهاد فى سبيل الله.

قيل: ثم ماذا؟

قال: حج مبرور».

ومن تفسير الحج المبرور نقول: إن الله سبحانه يقول:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (١).

ومن شروط الحج المبرور - إذن - الانتهاء من آثام اللسان التى تتلخص فى الرفث والجدال، أو الكلام العابث، والكلام المشاحن.

وفى الانتهاء من آثام الفعل التى عبر الله عنها بالفسوق، وهذا المعنى هو ما رواه الإمام عبد بن حميد - بسنده - عن جابر ابن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«من قضى نسكه، وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه».

---

(١) البقرة آية: ١٩٧.

فالانتهاء عن الرفث والفسوق والجدال، هو سلامة المسلمين من لسان الحاج وجوارحه، وفضلا عن هذا، فإن أعمال الحج تبدأ أول ما تبدأ بالتوبة الخالصة النصوح.

إنها تبدأ بالندم على ما فات من معاصى، وبالعزم المصمم، العزم الذى لا تزعزعه الأعاصير. على ألا يأتى الذنب فى المستقبل.

إنها تبدأ بالنية المؤكدة على أن يستقبل حياة يتزود فيها بالتقوى لينال رضوان الله.

ومادام الأمر كذلك، فإنه يدخل فى نطاق من يقول رسول الله ﷺ فيهم، حسبما يروى الإمام البخارى، والإمام مسلم بسندهما عن أبى هريرة: من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.

* * *

الفصل السابع

حجـــة النبى ﷺ

وفى نهاية الحديث عن الحج، نذكر حجة النبى ﷺ تبركا بها، وتلخيصا لما سبق، وإيجازا لما مر مفصلا.

وقد كانت هذه الحجة فى السنة العاشرة للهجرة، وسميت حجة الوداع.. أما سبب هذه التسمية، فقد رواه الإمام البخارى فى صحيحه قال: وقال هشام بن الغاز، أخبرنى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما، وقف النبى ﷺ يوم النحر بين الجمرات، فى الحجة التى حج بها، وقال: هذا يوم الحج الأكبر.. فطفق النبى ﷺ بعد أن خطب فى الناس، يقول: «اللهم اشهد» وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع».. هذا سبب التسمية. ولقد روى الإمام مسلم فى صحيحه هذه الحجة فى شىء من الترتيب والتفصيل، أنه يقول: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، وإسحاق بن إبراهيم جميعا عن حاتم، قال أبوبكر: حدثنا حاتم بن اسماعيل المدنى، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال:

دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم حتى انتهى إلى، فقلت: أنا محمد بن على بن حسين، فقال: مرحبا بك يا ابن أخى، سل عما شئت، فقلت: أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ، فقال بيده، فعقد تسعا، فقال: إن رسول الله ﷺ، مكث تسع سنين [1] لم

(١) أى فى المدينة.

يحج، ثم إذن [1] فى الناس فى العاشرة أن رسول الله حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر.. فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟.. قال: اغتسلى واستثفرى [2] بثوب وأحرمى.. فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد، ثم ركب القصواء [3]، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء [4]، نظرت إلى مد [5] بصرى بين يديه، من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شىء عملنا به، فأهل بالتوحيد [6] «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك، لا شريك لك»، وأهل الناس بهذا الذى يهلون به لم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئا منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته، قال جابر رضى الله عنه: لسنا ننوى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا

---

(١) أعلمهم بذلك وأشاعه بينهم.

(٢) الاستثفار: أن تشد فى وسطها شيئا، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم، وتشد طرفيها من قدامها ومن وراءها فى ذلك المشدود فى وسطها.

(٣) اسم الناقة.

(٤) الصحراء.

(٥) آخره.

(٦) أى بالتلبية: لبيك اللهم لبيك .. إلخ.

البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثا [١]، ومشى أربعا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم ﷺ فقرأ: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان أبى يقول: ولا أعلمه ذكره إلا عن النبى ﷺ : كان يقرأ فى الركعتين: «قل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون»، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: «إن الصفا والمروة من شعائر الله» - أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فترقى [٢] عليه، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال؟: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.. لا إله الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم دعا بين ذلك.. قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت [٣]، قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة.. فقال: لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله ! ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى، وقال: دخلت العمرة فى الحج مرتين،

---

(١) رمل: أى أسرع.

(٢) رقى: صعد.

(٣) أى انحدرت.

لا .. بل لأبد أبد، وقدم على من اليمن ببدن النبى ﷺ فوجد فاطمة رضى الله عنها، ممن حل، ولبست ثيابا صبيغا [1]، واكتحلت، فأنكر علىّ ذلك عليها، فقالت: إن أبى أمرنى بهذا .. قال: فكان على يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشًا [2] على فاطمة للذى صنعت، مستفتيا لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها، فقال: صدقت، صدقت.. ماذا قلت حين فرضت الحج.. قال: قلت: اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك، قال: فإن معى الهدى فلا تحل.. قال: فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمن، والذى أتى به النبى ﷺ مائة، قال: فحل الناس كلهم وقصروا، إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة [3] من شعر، تضرب له بنمرة [4]، فسار رسول الله ﷺ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام [5]، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية، فأجاز [6] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا

(١) أى مصبوغة.

(٢) ذاكرا ما يتقضى عتابها، ومغريا عليها.

(٣) أى خيمة كالقبة.

(٤) مكان معروف بجنب عرفات.

(٥) جبل بالمزدلفة.

(٦) جاوز المشعر مر به ولم يقف.

زاغت[1]، الشمس أمر بالقصواء فرحلت [2] له، فأتى بطن الوادى، فخطب الناس وقال:

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا .. ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة - وإن أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث - كان مسترضعا فى بنى سعد، فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله .. فاتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن [3] فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله .. وأنتم تسألون عنى، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها [4] إلى الناس .. اللهم أشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات».

---

(١) مالت إلى جهة المغرب.

(٢) وضع عليها الرحل، وهيئت للركوب.

(٣) أى لا يستخلين وينفردن بالرجال، أو لا يأذن بالدخول لأحد تكرهون دخوله رجلا كان أو امرأة.

(٤) أى يقلبها ويرددها إلى الناس مشيرا إليهم.

ثم أذن، ثم أقام، فصلى الظهر، ثم أقام، فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل [1] المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلا - حتى غاب القرص.. وأردف أسامة خلفه .. ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق [2] للقصواء الزمام [3]، حتى إن رأسها ليصيب مورك[4] رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس: السكينة السكينة» [5] كلما أتى جبلا [6] من الجبال أرخى لها قليلا، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح [7] بينهما شيئا، ثم، اضطجع رسول الله ﷺ، حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه وكبره، وهلله ووحده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلا حسن الشعر

---

(١) مكان اجتماع غير الراكبين.. ويروى جبل المشاة أى طريقهم.
(٢) شنق: أى ضيق وضم.
(٣) ما تقاد به.
(٤) المورك: الموضع الذى يثنى الراكب رجله عليه، قدام واسطة الرجل، إذا مل من الركوب.
(٥) أى الزموا الرفق والطمأنينة.
(٦) المراد: كلما أتى تلا لصيفا من الرمل الضخم.
(٧) أى يصل.

أبيض وسيما، فلما دفع رسول الله ﷺ، مرت به ظعن [1] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه عن الشق الآخر ينظر، حتى أتى بطن محسر [2]، فحرك قليلا، ثم سلك الطريق التى تخرج على الجمرة الكبرى [3]، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف [4]، رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثا وستين بيده، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر [5] وأشركه فى هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة [6] فجعلت فى قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.. ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض [7] إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى بنى عبد المطلب، يسقون على زمزم، فقال: انزعوا [8] بنى عبد المطلب، فلولا أن

---

(١) أى نساء.

(٢) المكان الذى توقف فيه قبل أصحاب الفيل وامتنع عن المسير.

(٣) هى جمرة العقبة وهى التى عند الشجرة.

(٤) وهو نحو حبة الباقلاء.

(٥) ما بقى وهو تمام المائة.

(٦) بفتح الباء: أى قطعة:

(٧) المراد: أقبل إلى البيت وطاف طواف الإفاضة.

(٨) استقوا بالدلاء وانزعوها بالحبال وكانوا ويغرفون الماء من زمزم يملأون به الحياض، ليشرب الناس.

يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوا فشرب منه».

وعند هذا ينتهى ما رواه الإمام مسلم من حجة رسول الله ﷺ.

* * *

الفصل الثامن

المدينة المنورة

كان اسمها يثرب، ولو لم يهاجر رسول الله ﷺ إليها، ولو لم يدخلها الإسلام، لبقى اسمها كما كان عبر التاريخ، فلما أضاءت أرجاؤها بنور رسول الله ﷺ ، سميت «المدينة المنورة».

ومن أسمائها :

١ – طابة : وفى الصحيح : إن الله سمى المدينة طابة فعن جابر بن سمرة فيما رواه الإمام مسلم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله تعالى سمى المدينة طابة».

٢ – طيبة : سماها به رسول الله ﷺ وهما من الطيب أى الرائحة الحسنة، والطاب والطيب لغتان بمعنى.

٣ – طيبة : بتشديد الياء.

٤ – جابرة.

٥ – الحبيبة : حكاه ابن خالويه.

٦ – دار الهجرة.

٧ – الإيمان : قال ابن أبى خيثمة : الإيمان من أسمائها.

وقد ذكر لها صاحب «إعلام الساجد» اكثر من عشرين اسما، وهذه الأسماء تبين زوايا من خصائص المدينة ومن فضلها .

ومن فضائل سالمدينة نذكر ما يلى :

فضائل المدينة

فى حديث حسن يرويه الإمام الترمذى بسنده ، عن ابن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت شفيعا يوم القيامة».

وقال ﷺ فيما رواه الشيخان :

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:

المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى».

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة :

«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام».

وروى الطبرانى فى معجمه الأوسط، بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

«من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتبت له براءة من النار، ونجاة يوم القيامة».

وفى الصحيح عن ابن عباس قال :

«كان رسول الله ﷺ ، يأتى مسجد قباء راكبا وماشيا، فيصلى فيه ركعتين».

وفى رواية : «كان يأتيه كل سبت ، ويستحب أن يكون ذلك»[1].

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال :

«مر بى عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى، قال : قلت له : كيف سمعت أباك يذكر فى المسجد الذى أسس على التقوى؟ قال :

قال أبى : دخلت على رسول الله ﷺ ، فى بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله: أى المسجدين الذى أسس على التقوى؟ قال:

فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال :

هو مسجدكم هذا ، «لمسجد المدينة» ، قال : فقلت : أشهد أنى سمعت أباك هكذا يذكره» [2].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة وغيره :

«من صبر على لأواء المدينة وشدتها ، كنت له شهيدا ، أو شفيعا يوم القيامة».

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه.
(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

وعن عامر بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ:

«إنى أحرم ما بين لابتى المدينة، أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها».

وقال : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعا . أو شهيدًا يوم القيامة» (١).

وفى الصحيح : «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة».

وفى رواية للطبرانى: «ما بين حجرتى ومصلاى».

ومن المشهور : «إن المدينة كالكير تنفى خبثها، وينصع طيبها.

وأنه لا يريد أحد أهلها بسوء إلا أذابه الله فى النار، ذوب الرصاص، أو ذوب الملح فى الماء».

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه، هلم إلى الرخاء ، هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

والذى نفسى بيده ، لا يخرج منهم أحد رغبة عنها، إلا أخلف

---

(١) رواه الإمام مسلم.

الله فيها خيرا منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث ، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد»[1].

وانظر إلى هذه البصائر المستنيرة التى عرفت للمدينة فضلها فقدرتها:

انظر إلى الإمام مالك وموقفه منها :

روى عن مالك رضى الله عنه أنه كان لا يركب بالمدينة بغلة ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال :

«لا أطأ راكبا مكانا وطئه رسول الله ﷺ».

ويقول :

«حرمة الرسول ﷺ - حيا وميتا - سواء» . وقد قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [2].

ويقول صاحب إعلام الساجد :

يستحب الغسل لدخول المدينة، قاله أبو بكر الخفاف من قدماء أصحابنا فى كتاب الخصال - وصرح به النووى فى مناسكه أيضا.

---

(١) رواه الإمام مسلم.

(٢) سورة الحجرات آية : ٢.

ومن أجلّ ما يوضع فى ميزان فضل المدينة ما يرويه ابن أبى خيثمة فى تاريخه الكبير عن مالك من أن المدائن كلها افتتحت بالسيف ، والمدينة افتتحت بالإيمان.

وعن سفيان بن أبى زهير قال : قال رسول الله ﷺ :

يفتح الشام : فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعملون .

ثم يفتح اليمن : فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يفتح العراق : فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» [1].

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[2].

ويقول صاحب «إعلام الساجد»:

ينبغى للزائر الغريب أن يسلم على النبى ﷺ ، كلما دخل المسجد أو خرج.

---

(١) رواه الإمام مسلم.

(٢) رواه الإمام مسلم.

اللهم بارك لهم :

عن أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ لأبى طلحة :

التمس لى غلاما من غلمانكم يخدمنى ، فخرج بى أبو طلحة يردفنى وراءه ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل .

وقال فى الحديث : «ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد، قال : «هذا جبل يحبنا ونحبه».

فلما أشرف على المدينة قال :

«اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة.

اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم» (١).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

«اللهم بارك لهم فى مكيالهم ، وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مدهم» (٢).

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

«اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما بمكة من البركة» (٣).

---

(١) رواه الإمام مسلم.

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٣) رواه الإمام مسلم.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أنه قال :

كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبى ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال :

اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا.

اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه، قال :

ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر (١).

حرمة المدينة :

عن عبد الله بن زيد بن عاصم ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت فى صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» (٢).

وعن نافع بن جبير أن مروان بن الحكم خطب الناس فذكر

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.
(٢) متفق عليه.

مكة وأهلها، وحرمتها، ولم يذكر المدينة وأهلها وحرمتها ، فناداه رافع بن خديج فقال :

ما لى أسمعك ذكرت مكة وأهلها وحرمتها ، ولم تذكر المدينة وأهلها وحرمتها ، وقد حرم رسول الله ﷺ ما بين لابتيها، وذلك عندنا فى أديم حولانى، إن شئت أقرأتكه؟

قال : فسكت مروان ، ثم قال : قد سمعت بعض ذلك.

وعن إبراهيم التيمى عن أبيه قال :

خطبنا على بن أبى طالب فقال :

من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه إلا كتاب الله ، وهذه الصحيفة، قال : وصحيفة معلقة فى قراب سيفه - فقد كذب ، فيها: أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات ، وفيها قال النبى ﷺ :

المدينة حرام ما بين عير إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثا ، أو آوى محدثا ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا، ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم.

ومن ادعى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» (١) .

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

ومن عاصم قال : قلت لأنس بن مالك :

أحرم رسول الله ﷺ المدينة ؟

قال : نعم . ما بين كذا إلى كذا ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا .

قال : فقال ابن أنس : «أو آوى محدثا» (١).

الوصول إلى المدينة :

فإذا ما وصل الحاج إلى المدينة يدخلها قائلا :

باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ﷺ .

﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (٢) .

ويتجه إلى المسجد فيصلى ركعتين .

ثم يأتى قبر النبى ﷺ ، فيقف عند وجهه ، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع .

وليس من السنة أن يمس الجدار ، ولا أن يقبله، بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام ، فيقف ويقول :

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٠.

السـلام عليك يا رسـول الله ، السـلام عليك با نبى الله ، السـلام عليك يا أمـين الله، السـلام عليك يا حـبـيب الله ، السـلام عليك يا صـفـوة الله ، السـلام عليك يا خيـرة الله ، السـلام عليك يا أحـمـد ، السـلام عليك يا مـحـمـد ، السـلام عليك يا أبا القـاسم، السـلام عليك يا مـاحى ، السـلام عليك يـا عـاقب ، السـلام عليك يا نذيـر ، السـلام عليك يا طهـر ، السـلام عليك يا طاهـر ، السـلام عليك يا أكـرم ولـد آدم ، السـلام عـليك يا سـيـد المرسلين، السـلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسـول رب العالمين ، السـلام عليك يا قـائد الخيـر، السـلام عليك يا فـاتح البـر ، السـلام عليك يا نبى الرحـمـة ، السـلام عليك يـا هـادى الأمـة، السـلام عليك يا قـائد الغـر المحـجلين، السـلام عليك وعلى أهل بيـتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهـرهـم تطهـيـرا، السـلام عليك وعلى أصـحـابك الطيبين، وعلى أزواجك الطاهرات أمهـات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جـزى نبيا عن قـومه، ورسـولا عن أمتـه، وصلى عليك كلما ذكـرك الذاكـرون، وكلمـا غـفـل عنك الغـافلون ، وصلى عليك فى الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقـه ، كمـا استنقذنا بك من الضـلالة ، وبصـرنا بك من العماية ، وهدانا بك من الجهالة.

أشـهـد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك له ، وأشـهـد أنك عبده ورسـوله ، وأمينه وصـفـيه، وخيـرته من خلقـه، وأشهد أنك قد

بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت عدوك، وهديت أمتك، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين، وسلم وشرف ، وكرم وعظم..

وأن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول :

السلام عليك من فلان ، السلام عليك من فلان [1] .

لم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبى بكر رضي الله عنه.

ثم يتأخر قدر ذراع ، ويسلم على الفاروق عمر، ويقول :

السلام عليكما يا وزيرى رسول الله ﷺ ، والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حيا، والقائمين فى أمته بعده بأمور الدين، تتبعان فى ذلك آثاره، وتعملان بسنته، فجزاكما الله خير ما جزى وزيرى نبى عن دينه.

ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله ﷺ، بين القبر والأسطوانة اليوم، ويستقبل القبلة، وليحمد الله عز وجل، وليمجده، وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ، ثم يقول :

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى.

«اللهم انك قد قلت وقولك الحق»:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (١).

اللهم إنا قد سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك ، وقصدنا نبيك ، متشفعين به إليك فى ذنوبنا ، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا ، تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا وتقصيرنا ، فتب اللهم علينا ، وشفع نبيك هذا فينا، وارفعنا بمنزلته عندك ، وحقه عليك.

اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار ، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ، ومن حرمك ، يا أرحم الراحمين.

ثم يأتى الروضة ، فيصلى فيها ركعتين ، ويكثر من الدعاء ما استطاع ، لقوله ﷺ :

ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى (٢).

ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة، فالمستحب أن يأتى القبر الشريف، ويعيد دعاء الزيارة كما سبق،

---

(١) سورة النساء آية : ٦٤.

(٢) متفق عليه.

ويودع رسول الله ﷺ، ويسأل الله عز وجل ، أن يرزقه العودة إليه، ويسأله السلامة فى سفره، ثم يصلى ركعتين فى الروضة الصغيرة [1].

فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ، ثم اليمنى، وليقل :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، ولا تجعله آخر العهد بنبيك ، وحط أوزارى بزيارته، وأصحبنى فى سفرى السلامة، ويسر رجوعى إلى أهلى ووطنى، سالما، يا أرحم الراحمين.

وليتصدق على جيران رسول الله ﷺ بما قدر عليه» أ. هـ.

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أن صاحب كتاب «الشامل» حكى الحكاية المشهورة عن العتبى قال:

كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال :

السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول :

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾.

وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ثم أنشأ يقول :

---

(١) إحياء علوم الدين.

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه

فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى النوم فقال :

«يا عتبى !!.. الحق الأعرابى، فبشره أن الله قد غفر له».

★ ★ ★

خاتمة

فى روحانية الحج
وفى السلوك بعد الحج

إن كلمة «الإسلام» التى هى عنوان على دين الله الخالد: تشعر فى وضوح ، بالهدف الذى أراده الله، سبحانه وتعالى، من رسالته التى لم يختلف جوهرها على مر العصور.

هذا الهدف هو : إسلام الوجه لله ، والتسليم له، والدخول فى رحابه.

وذلك بالنسبة للإنسان: كمال. وبالنسبة للمجتمع : أمن وطمأنينة.

وقد اختلفت وسائل الإسلام فى قيادة الإنسان إلى اسلام الوجه لله وتعددت ، نظرا لاختلاف طبائع الإنسان وتعددها، وما كانت العبادات فى الإسلام على اختلاف ألوانها إلا وسائل لتزكية النفس، وكمال الإنسان، حتى يستأهل لمرضاة الله تعالى ، وحتى يفلح بالقرب من الله ، والانتساب إلى عبادة الرحمن: .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

---

(١) البقرة : ١٢٩.

وإن من هذه العبادات الحج : إنه وسيلة من أسمى وسائل قيادة الإنسان إلى الله تعالى ، وهو مجموعة رائعة من الرموز الروحية التى تنتهى - إذا أقيمت على وضعها الصحيح - بالمسلم إلى الدخول فى المحيط الإلهى .

وتبدأ أعمال الحج - بتوفيق الله تعالى - بالاغتسال الظاهرى، بالنظافة الجسمية.

فإذا ما تم ذلك : يتوب المسلم توبة خالصة نصوحا، نادما على ما فعل من آثام، مقلعا عن الذنب، عازما عزما لا يلين ، ألا يعود إلى ذنب أبدا ، متجها بتوبته إلى الله تعالى، طالبا منه العون والتوفيق ، راجيا مرضاته.

وتأكيدا لهذا التطهر الباطن ، والتطهر الظاهر، يلبس ملابس الإحرام، بيضاء ناصعة، بلبسها على طبيعتها التى نسجت عليها دون أن تدخلها صنعة فتغير من معالمها ، أو تبدل من أوضاعها . إنه يلبسها على الفطرة ، وعلى النقاء ، تاركا ما عساه أن يكون قد تلوث بالأخطاء من ملابس .

ثم يسجل العزم المصمم ، على استمرار الطهر ، فيما يستقبل من أيام بهذه الكلمات التى تعبر عن الاستجابة الكاملة لله سبحانه وتعالى :

«لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

إن هذه الاستجابة إلى الله سبحانه وتعالى : عهد منه إلى الله بالتزام إسلام الوجه له سبحانه ، ويكرر هذا العهد فى كل آونة، : يقوله إذا صعد ، ويقوله إذا نزل .

يقوله مصبحا ، ويقوله ممسيا ، فيرتسم فى فؤاده بأحرف من نور الإيمان، ومن سناء الهداية. حتى إذا ما وصل إلى البيت الحرام، فإن من السنة: أن يبتدئ الدخول فى المسجد الحرام بالتعبير عن الاستجابة إلى الله بصورة أخرى هى :

«باسم الله وبالله ، ومن الله ، وإلى الله ، وفى سبيل الله، وعلى ملة رسول الله ، ﷺ».

وهذه الكلمات فى روحها ، ومعناها : تلبية واستجابة.

ويبدأ الطواف :

يبدؤه ببسم الله، والله أكبر ..

وما كان البيت - هيكلا وبناء - فى يوم من الأيام المقصد الأخير للطائفين والعاكفين ، والركع السجود، وإنما هدفهم الأول والأخير ، رب البيت.

ويستلم الحجر الأسود ، والحجر الأسود ، إنما هو الحجر

الذى بقى يتسم بطابع سيدنا إبراهيم الذى لم يكن يهوديا ، ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما.

والذى تضرع إلى الله سبحانه وتعالى، أن يبعث فى الجزيرة العربية رسولا عربيا هاديا، ومزكيا فقال:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

وكأن المسلم بهذا الاستلام لهذا الأثر الإبراهيمى يعاهد الله على أن لا ينحرف عن الملة الحنيفية ، وأن يكون على مر السنين تابعا لهذا الرسول العربى الذى بعثه الله رحمة للعالمين.

إنه يطوف معلقا قلبه وبصره وسمعه وكيانه كله برب البيت.

إنه يطوف لعل الستائر ترتفع، لعل الحجب تتكشف، لعل الأقنعة تزول، لعل الباب يفتح، لعل رب البيت يتفضل بالقبول، لعل الله يرضى.

إنه يطوف خاشعًا ، خاضعًا ، يدعو ، ويتضرع لعله يشعر بنسمات الرضا، بنغمات الأنس، بكأس المحبة، بسلسبيل المعرفة:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢).

---

(١) البقرة : ١٢٩.

(٢) البقرة : ٢٠١.

ويذهب إلى السعى : يبتدئ من الصفا : أى من الصفاء من جديد، ليزداد صفاء، وليزداد نورا.

وهكذا من الصفاء إلى الرى، ومن الرى إى الصفاء.

وفيوضات الله لا تنتهى ، ومنحه سبحانه وتعالى : لا تحدها حدود .

إنه يسعى رحمة بنفسه ، ويسعى ليكون رحمة فى أسرته، وفى عشيرته ، وفى وطنه ، وفى العالم بأسره.

إنه يسعى ليصير رحمة :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (١).

ويذهب إلى عرفات للتعرف على الله سبحانه وتعالى، وليقف متلقيا منه سبحانه رحمته.

والحج عرفة كما يقول الرسول ، ﷺ.

إنه تعرف على الله سبحانه وتعالى مصدر الخير، كل الخير، ومصدر النعمة ، كل النعمة ، ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنسانى.

إن الذى يتعرف على الله : يصبح من الكمال الإنسانى فى الذروة.

---

(١) الكهف : ١٠.

ولما كانت طريقة التعرف إلى الله فى الحج: توبة نصوحا، واستجابة مخلصة، وطوافا بالبيت فى تضرع، وابتهالا إلى رب البيت، وسياحة من الصفاء إلى الرى، ومن رى يزداد إلى صفاء بصفو.. لما كانت كذلك كانت تزكية للنفس.

فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك ، يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نورا يعرفها به، فتتعرف عليه وتلتزمه، وتقف عنده، وتنتهى إليه:

﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾.

وليس هناك منتهى دون الله سبحانه وتعالى ، وكل ما دونه منتهى مزيف فاسد ، أما المنتهى الحق : فهو الله سبحانه وتعالى :

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١).

وتنتهى أعمال الحج بالذهاب إلى منى، والمكث فيها لرجم الشيطان مصدر الشر: إبليس، مرة، ومرة، ومرة.

وما كان رجم إبليس إلا رجما لعامل قوى من عوامل الإفساد والمعصية والإثم.

إن المسلم يرجمه مؤكدا بذلك الرجم : أنه تخلص إلى الأبد من الشر، ومن المعاصى، ومن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى، وذلك هو العيد حقيقة ، والبهجة والسعادة.

---

(١) الممتحنة : ٤.

والعيد الإسلامى عقب الحج : إنما هو احتفال عام فى الأمة الإسلامية كلها بمن انتهى بهم الحج إلى إسلام الوجه لله ، إلى الطهر ، إلى التزكية، إلى الصفاء..

إن العيد الأكبر ، إنما هو حفل تكريم لمن استقام أمرهم على الجادة، لمن دخلوا بالحج فى عباد الرحمن، لمن أسلموا وجوههم لله سبحانه وتعالى، إنه.. لمن أسلموا.

بعد الحج

عن أبى هريرة - رضي الله عنه - فيما رواه البخارى ومسلم ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

وعنه - صلوات الله وسلامه عليه - قال :

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»..

والحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية .. وهذا الحديث الأخير مما اتفق عليه البخارى ومسلم أيضًا..

والواقع أنه من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن جعل لها منافذ لتطهير النفس وتزكيتها حتى تنال رضاء الله وتنعم بثوابه..

ومن النوافذ الكبرى : الحج المبرور ..

وليس من العسير على الإنسان أن يخلص وجهه لله ، فى أيام معدودات، يصبح الإنسان بعدها من البراءة والطهر ، كيوم ولدته أمه، خالصا من الدنس ، مبرأً من الآثام..

هذه التزكية ، وهذا الطهر ، يجب أن يستمرا فيما يستقبله الحاج من عمره .. وإذا كان الله قد هيأ للمسلم هذه الفرصة الكبرى ، ليصل بسببها إلى المستوى الملائكى فى الطهر ، فإنه على المسلم أن يحافظ عليها محافظة تامة..

إن الإنسان فى مفتتح أعمال الحج يتوب إلى الله توبة نصوحا ، ويعاهده عهدا يعزم ألا ينقضه، على أن يسير فى حياته متبعا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليه، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وهو بهذه التوبة يتطهر باطنيا ، ويشفع التطهير الباطنى بتطهير ظاهرى.. وهو : غسل الإحرام .. ويعلن عن إخلاصه فى الطهر الباطن ، والطهر الظاهر، بالصورة الجميلة ، صورة ملابس الإحرام نقية طاهرة، بيضاء صافية، خلت خلوا تاما من الدنس والخبائث .. ويثبت كل ذلك بالشعار القوى الدائم فى الحج :

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك، لا شريك لك»..

وهو – اذن – منذ البدء ، يتطهر باطنا ، ويتطهر ظاهرا .. ويتطهر بالقول ، ويتطهر بالسلوك.

هذا الصفاء ، وهذا الطهر ، يجب أن يستمرا بعد الحج.. ويجب أن يدوما مدى الحياة .. والعهد الذى عاهد الله عليه من الإخلاص والتقوى يجب أن يلتزمه طيلة حياته .. يقول الله تعالى موجها المسلمين إلى التزام عهودهم:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (١).

أما هذه التى نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثا، فإنها كل امرأة خرقاء، ناقصة العقل، تغزل طول يومها مثابرة دائبة ، وتحكم غزلها ، ثم تنقضه آخر النهار .. ومثل كل من يعاهد الله ثم لا يوفى بعهده، مثل هؤلاء النسوة الحمقاوات اللواتى ينقضن آخر اليوم ما غزلن فى أوله.

على أن الإخلال بالعهد مع الناس ، يعتبر عند الله من علامات النفاق .. فما بالك بالإخلال بالعهد الذى بين الإنسان وربه ؟ لقد بين صلوات الله وسلامه عليه علامات المنافق.

---

(١) النحل : ٩١ ، ٩٢.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فيما رواه البخارى ومسلم أن رسول الله - ﷺ - قال :

«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن: كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وعن أبى هريرة رضي الله عنه فيما رواه الإمامان البخارى ومسلم ، أن رسول الله ﷺ قال :

«آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان».

على أن هذا الذى يعاهد الله ، ثم ينقض عهده، إنما يقول ما لا يفعل ، وقد هدد الله سبحانه من يفعل ذلك، وتوعده ومقته:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (١).

أما إذا تزكى المسلم بالحج، ثم حافظ على هذه التزكية بعد الحج: فإنه ينال السعادة الحقة: إنه ينال سعادة الدنيا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، كفل لمن انضوى تحت لوائه، واهتدى بهديه واتقاه، طيب الحياة ، يقول سبحانه :

(١) الصف : ٢ ، ٣ .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وقد تكفل سبحانه وتعالى بإخراج المتقى من كل ما يصادفه من المآزق، وبأن يرزقه من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢).

على أنه بمجرد الابتداء فى السير إلى الله تبدأ رعاية الله غامرة عامة شاملة.

وهذا الابتداء فى التوجه إلى الله إنما يكون فى صورة الاستغفار، والله سبحانه يقول :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٣)

ويقول تعالى، فيما قصه حكاية عن سيدنا هود عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ (٤).

---

(١) النحل : ٩٧.
(٢) الطلاق : ٢ ، ٣ .
(٣) نوح : ١٠ – ١٢.
(٤) هود : ٥٢.

هذه الرعاية من الله إنما هى فى الدنيا ، بيد أن رعايته سبحانه لا تقتصر عليها، وإنما تشملها، وتتعداها إلى رعاية أجل وأعظم، وهى رعايته سبحانه فى الآخرة، لمن حافظ على عهده ، وأوفى بعقده، يقول سبحانه وتعالى:

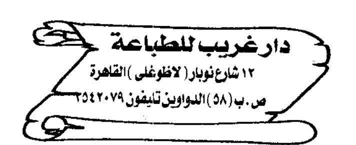
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

وبعد : فإن أكرم الناس على الله، هو أتقاهم له سبحانه، والأتقى هو الذى تزكى ثم حافظ على التزكية. ولن يضيع الله أكرم الناس عليه، وكيف؟ وهو سبحانه إكرم الأكرمين.

* * *

(١) الأنفال : ٢٩.

الفهرس


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٢٥٤٢٠٧٩